المجلد: 04؛ العدد: 01؛ 2015
ص 11-20

مجلة منبر التراث الاثري
ISSN: 2335-1500, EISSN: 2602- 7267

المكنون الحضاري للتاسيلي نزجر

أ. حفيظة لعياضي (جامعة المسيلة)

Abstract:

Tassili N'Ajjer is an important part in the Sahara of the Maghreban countries. And if that part is dry nowadays, it had known in the prehistorical era a humid environment. The ancient humans left drawings reflecting their way of living and their environment, such as plants or animals on Tassili rock, from the bubaline period and the period of Roundheads, the Bovidian period untilcaballine and camelina. All in tables left large areas in the writings of ancient historians such as Herodotus and archaeologists and researchers. The continuation of these successive tables reflects the continuity of civilization in Tassili n'Ajjer. Since it is an open letter ancestral to current and future generations which means their identity.

مقدمة:

تشكل منطقة التاسيلي نزجر جزءا مهما من الخارطة الصحراوية لبلاد المغرب، وإن كانت هذه الرقعة اليوم بيئة جافة، فإنها عرفت خلال فترات ما قبل التاريخ وسطا رطبا، شهد على تعمير الإنسان المغاربي بها واستقراره، خاصة أنه خلد مشاهد لحياته اليومية ومحيطه الحيوي، من نبات وحيوان على جداريات التاسيلي الصخرية، منذ فترة الجاموس إلى الرؤوس المستديرة، فالمرحلة البقرية ثم الخيلية، وصولا إلى عصر الجمل. كلها في لوحات فنية أدهشت المؤرخين القدامى مثل هيرودوت, وكذا الأثريين والباحثين في خباياها، فاستمرار هذه اللوحات عبر فترات متلاحقة، عكس التواصل الحضاري لإنسان التاسيلي نزجر، سلف الإنسان المغاربي، من خلال فن صخري، يعكس إرثا حضاريا يتوجب الحفاظ عليه، لأنه رسالة الأجداد إلى الأجيال الحاضرة واللاحقة، تعبيرا عن هويتهم الحضارية والوطنية التي تمتد جذورها في عمق التاريخ.

شهدت الصحراء الوسطى لشمال إفريقيا تغيرات عديدة منذ فترة ما قبل التاريخ وإلى الوقت الحاضر، عبر حلقات متواصلة من مراحل تاريخها، تجسدت في مواقع مختلفة، من بينها منطقة

التاسيلي نزجر، الذي عرف فنا صخريا راقيا يعكس الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية لصانع تلك اللوحات الصخرية، فإذا كان هذا الفن يعد دليلا قاطعا على تاريخ إنسان هذه المنطقة وثقافته،فإنه يدعونا إلى التساؤل عن ماهية هذا الفن؟ وعن البيئة الطبيعية التي جعلت من الطاسيلي مركزا حيويا له؟ وكذا المراحل التي عرفها الفن الصخري؟ وأيضا عن صاحب هذه الرسوم وأبعادها الحضارية والفنية؟

1. معطيات عامة:

عرف تاسيلي نزجر بيئة رطبة، مشبعة بغطاء نباتي وحيواني ومائي قبل أن تؤول الصحراء إلى الجفاف، الذي هي عليه اليوم. وإن بحثنا عن تلك الحياة الرطبة، جعلنا ندرك من خلال الأبحاث الأثرية ودراسات الجغرافيا الفيزيائية, أن الطاسيلي الذي يترادف لفظه ومعنى الهضبة باللسان التارقي، وآزجر تمييزا له عن تاسيلي الآيير بجنوب الهقار، يتراوح معدل ارتفاعه ما بين 1200-1500م، ويصل علو ذروته إلى ارتفاع 2335م.[1]

يمتد عرض التاسيلي حسب ما أورده الباحث لوت(Lhote) ، الذي عاينه عن قرب من إقليم فزان (ليبيا الحالية) إلى واد إيغارغار، أما طوليا، فهو يمتد على أكثر من 700كم، من أمقيد بالشمال الغربي إلى الحدود النيجرية بجنوب عين قزام[2]، ويتشكل هذا التاسيلي من هضبتين تتطابق إحداها على الأخرى مثل درجتي سلم، ونعني بها التاسيلي الداخلي والتاسيلي الخارج[3].

جعلت الجيولوجية التي شكلت جزءا من التحولات التي عرفتها الصحراء الوسطى، التاسيلي يتكون خلال حقبة الباليوزويكي، لكن ليس كما هو ممثل اليوم، بل بدأ بالتكدس والترسب تدريجيا في شكل كتل ضخمة من الرمال، في محيط قاري وبحري، وبفعل عوامل ديناميكية قارية وبحرية تخللتها بعض النشاطات البركانية، فبعد أن أصبحت هذه الكتلة منتصبة على شكلها الحالي، أمكن لهضبة التاسيلي أن تتربع على مساحة 350 ألف كلم[2].[4]

وقد ساهم المناخ في إرساء بنية هذه المظاهر الطبيعية للتاسيلي، وتطور جيولوجيتها منذ بداياتها الأولى، خلال فترات باكرة. إذ عرفت خلال العصر الجيولوجي الرابع، ثلاث مراحل مناخية متعاقبة، ونعني بها المرحلة الرطبة الأولى التي تزامنت والباليوليتيك الأسفل، ثم تلتها مرحلة جافة طويلة، بدأت خلال العصر الآشولي، حيث امتدت على طول الباليوليتيك الأعلى وجزء من النيوليتي. وأخيرا مرحلة رطبة ثانية خلال النيوليتي[5].

وانعكست هذه التغيرات المناخية التي عرفها التاسيلي نزجر منذ زمن بعيد، على شبكة المياه والغطاء النباتي والحيواني، فمن الوديان التي كانت دائمة الجريان خلال تلك المراحل الرطبة، نجد واد جرات مثالا على ذلك[6] . وأما الحيوان، فإنه يكفينا أن نتتبع المكتشفات العظمية المتنوعة، والتي تعبر عن مكنون التاسيلي نزجر في الماضي، حيث تعود إلى فصائل تغيب كليا في الوقت الحاضر، ونعني بها حسب ما عاينه المكتشفون بالمنطقة، كلا من الفيل القديم، الجاموس، الحمار الوحشي، الزرافة، وسمكة السلور بالنسبة لفترة الباليوليتيك. كما وقد وجدت عظام لفرس النهر، وحيد القرن، ظباء، تماسيح، سلاحف وأسماك متنوعة ترجع إلى العصر الحجري الحديث[7].

إذا كان هذا هو حال البيئة الحيوانية التي عرفها التاسيلي نزجر في تلك الفترة، فإن للنبات الذي عاصره هو الآخر نصيب في المساهمة في إثراء هذه المنطقة، وجعلها محيطا حيويا آنذاك، ففي الألف السابع ق.م، ساد جبال هذه المنطقة مناخ رطب جعل قممه مكسوة بالغابات، كما ساد الارتفاعات المتوسطة صنوبر الألب، وأشجار الزيتون. وقد بقي هذا الغطاء النباتي على كتل الهقار والتاسيلي نزجر إلى غاية الألف الثالث على أقل تقدير، وهي الفترة التي دخلت فيها الصحراء الوسطى مرحلتها النهائية من الجفاف[8].

إلى جانب تلك الفصائل، نجد فصائل نباتية أخرى بالتاسيلي نزجر في تلك الفترة، مثل السرخس الذي عاصر مرحلة النيوليتي الرطب، وبعض الفصائل من الأرز، وكذا شجر القطن في السهوب[9]، هذا ونجد في جانت بالتاسيلي نزجر على ارتفاع 500م الغطاء النباتي المعشب للمستويات الأثرية العائدة إلى الألف الثاني ق.م، تحتوي على أنواع من السرمقيات (فصيلة نباتية من ذوات الفلقتين) والنجليات[10].

وإن كانت معطيات هذه الدراسات الجيولوجية والعلمية، المتعلقة بتلك المكتشفات النباتية والحيوانية لا تكفي لإثبات الكنه الحضاري لمنطقة التاسيلي نزجر، فإن الرسوم الصخرية التي وافقت نفس تأريخ هذه المكتشفات، لأكبر دليل على وجود حياة للإنسان وثقافته وفنه، التي تركها ماثلة للعيان على مر الزمان، في لوحات فنية متعددة المراحل. فالرسوم الصخرية تشهد على بيئة حيوانية وحشية وكذا عشبية في مراحل لاحقة[11] . كما أن النقوش الصخرية التي احتوت على رسوم الأبقار بالآلاف، تؤكد وجود أعشاب كثيرة من النجليات، حتى ذهب بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن تلك القطعان العديدة من الأبقار قد أدت إلى هدم الغطاء النباتي، وبالتالي إلى التصحر فيما بعد[12] . هذا وإن اللوحات الفنية المتعددة بواد جرات لدليل آخر على

اختيار الإنسان للاستقرار على ضفاف ذلك النهر، وبالتالي حيوية هذا الأخير، وتدفقه خلال تلك الفترة المواكبة لإنجاز تلك الرسوم والنقوش.

2. أهم المراحل التاسيلي نزجر:

هذه الوثائق المكتوبة والمتعددة، نقوشا أو رسوما كانت، قدمتها لنا الواجهات الصخرية ومغارات التاسيلي نزجر، تعد من بين المصادر، التي تحدد طبيعة الإنسان المغاربي القديم بالصحراء، وآثارا لوجوده، كما تعكس الذوق الفني العالي له. ودراسة هذه الرسوم مكنت من التعرف على عدة أطوار لها تعود إلى أكثر من فترة[13]، إذ مرت تاسيلي نزجر بخمس مراحل كبرى، استحضرت معظمها الحيوان الأكثر تجسيدا بمشاهدها.

أ. مرحلة الجاموس:

وأقدم هذه المراحل تلكم المسماة بمرحلة الجاموس(Bubaline) ، تمييزا للجاموس القديم الذي يعتبر فصيلة أحفرية من نوع إفريقي[14]، وتعود نقوش هذه المرحلة إلى النيوليتي القديم مع اتصاله بالباليوليتيك الأعلى، حيث استمرت إلى غاية الألف الخامس ق.م. ويمكننا أن نلاحظ على نقوشها نوعا مقلدا للطبيعة، إذ تجسدت مشاهد لفيلة، أفراس النهر، وحيد القرن، ظباء كبيرة، جاموس، نعامات، تماسيح، أفاعي ضخمة وأسماك[15]، فعبرت بذلك عن إنسان صياد، أو صاحب الحجارة المصقولة، ومهما كان هذا الإنسان قادرا على صناعته في ذلك الوقت، من مقصات ومسلات أو صنارات حجرية أو عظمية، فإنه اكتفى بتنظيم اجتماعي مبكر جدا[16].

ب. مرحلة الرؤوس المستديرة:

وأما عن الطور الذي تلي فترة الجاموس، فقد سمي بمرحلة الرؤوس المستديرة Les têtesrondes))، التي أبدع لوحاتها جماعات بشرية شغلت االتاسيلي نزجر منذ الألف العاشر ق.م، حيث تحولوا عبر مدة قصيرة تمتد إلى 800 سنة ق.م إلى النيوليتي واقتنوا الفخار حوالي سنة 9000 ق.م، إذ دلت الأقداح التي لوحظت محمولة في موكب للنساء ضمن رسوم الرؤوس المستديرة على ذلك[17].

ومن بين أروع الجداريات الرمزية التي شهدت على ذلك, نجد اللوحة الفنية التي عرفت بالإله الأكبر بمنطقة سفار (Sefar)، والتي تميزت بصور تحمل أقراص وبداخلها أشكال هندسية. ويشير الباحثون إلى أن أصحاب هذه الرسوم قدموا ملامح زنجية، سيما وأن هناك خاصية

مجلة منبر التراث الاثري
ISSN: 2335-1500, EISSN: 2602- 7267

المجلد: 04؛ العدد: 01؛ 2015
ص 11-20

منتشرة بكثرة في الفن الزنجي، وهي أنه إضافة إلى الرسوم الجسدية التي تكون إما رسوما أو وشما، فسنجد أنفسنا أمام سلسلة من الوقائع التي تدخل في المعنى الزنجي[18]، وهذا ما جسدته رسوم هذا الطور بالتاسيلي نزجر.

ت. المرحلة البقرية:

وتمثل المرحلة التي عرفت بالبقرية (Bovidienne)، الطور الذي تلي الرؤوس المستديرة، إذ شغلت البقرة الأليفة مركزا مهما في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، فأصبحت الموضوع الأكثر انتشارا في الفن الصخري، وفسحت بذلك المجال للمختصين لأن يمنحوا اسمها لهذه المرحلة[19]، وقد امتد الطور البقري ما بين الألف الرابع ق.م، إلى غاية الفترة التاريخية، فالتاسيليون القدامى، تبنوا البقرة بواسطة رعاة يعتقد بأنهم عرفوا تربيتها عن طريق جيرانهم المصريين. ذلك أن القبائل التي استوطنت غرب مصر، كانت قد عرفت هذا التدجين في وقت مبكر. وبالمقابل نجد بأن الغطاء الحيواني الإثيوبي كما يسميه الباحثون، والذي سبق البقرة، قد تراجع في رسوم هذه المرحلة[20].

وبالنسبة لأصحاب فن هذا الطور، فقد أشار المختصون إلى أن زنوج مرحلة الرؤوس المستديرة، قد استمروا في تطورهم في المخطط الاقتصادي، ووصلوا إلى إحدى التجديدات الهامة للعصر الحجري الحديث، وهو استئناس الماشية، والبقرة بشكل خاص، فعرفوا بالبقريين[21]، وما يمكن أن نشير إليه في المرحلة البقرية، هو أنه إلى جانب البقرة وذلك الإنسان الزنجي الذي صور معها، فقد أظهرت رسومات التاسيلي نزجر سكانا من عرق أبيض، فشكلوا بذلك نوعا هجينا لهذه المرحلة[22]، وكأمثلة على لوحات هذا الفن، يشير ميزوليني(Muzzolini) إلى رسوم سفار، التي احتوت على راعي زنجي بجانب البقرة، وكذا مجموعة إيهرير تاهيلاهي، التي أظهرت بدورها رعاة بقريين من جنس أبيض، وهو يدل على تعايش الجنسين الأبيض والزنجي في هذه المرحلة نفسها[23]، ولئن كان هؤلاء الزنوج هم النازلين من فترة الرؤوس المستديرة، فإن الفجر بربريين الذين هاجروا من الشمال نحو الجنوب، تتبعا للظروف المناخية الملائمة، يعتبرون أصحاب ذلك العرق الأبيض المصور في فن البقريين، وهذا دليل على التواصل بين إنسان الشمال والجنوب من بلاد المغرب منذ تلك الفترة[24].

ث. المرحلة الخيلية:

وبعد البقرة نجد الفن الصخري للتاسيلي نزجر يدخل مرحلة أخرى من تاريخه ومكنونه

الحضاري، وهو المرحلة الخيلية (Caballine)، التي أنجزت مشاهد لوحاتها الفنية بعد انقلاب كبير حصل في إفريقيا عموما، وهو دخول الحصان، حيث يعتقد بأنه دخل إلى ليبيا، ونقصد بها شمال إفريقيا كما عرفها المؤرخون الإغريق، عن طريق شعوب البحر خلال الألف الثاني قبل الميلاد، بالموازاة مع جفاف الصحراء الذي سيدوم إلى اليوم، وكذلك مع ظهور المعادن. هذه الأخيرة التي سمحت بالتسلح بواسطة الحربة، والدرع الدائري والمثلث، التي حلت محل القوس بالنسبة لصحراويي شمال إفريقيا[25].

هؤلاء الخيليين الذين اجتاحوا جداريات التاسيلي نزجر، مثلوا فئة حربية فرضت نفسها علي البقريين الهجينين، وكذا على الزنوج الذين سبقوهم (الرؤوس المستديرة) ولم يختفوا من المشاهد الصخرية، حيث يشير المؤرخون إلى أنهم جاؤوا من الشمال الشرقي، عن طريق برقة وفزان[26]، وقد سمي أصحاب هذه المرحلة الخيلية بالليبيين الصحراويين عند المؤرخين الكلاسيكيين، فالخيليين سائقي العربات ظهروا في الفن الصخري، مع تزايد الأهمية الاجتماعية وحتى الديمقراطية للشعوب المتوسطية، خلال المرحلة التي توافق النيوليتي النهائي وحتى فجر التاريخ[27].

وأما عن عرباتهم التي طبعت هي الأخرى هذا الطور من الفن الصخري، فقد صورت بالتاسيلي نزجر في شكلا لعدو السريع الطائر (galop volant)، وهي قديمة جدا وغالبيتها ملون بمادة المغرة[28]، وهو ما جعل هيرودوت يتحدث عنها واصفا إياها بالعربات الطائرة في نص حديثه عن قبائل الجرامنت التي عاشت بجوار التاسيلي نزجر، والتي اتخذت من العربات الحربية وسيلة لها في ذلك العصر، وصورتها على الجداريات الصخرية، حتى ذهب هيرودوت إلى القول بأن الإغريق قد عرفوا استعمال العربات التي تجرها أربعة خيول من الليبيين[29].

ج. مرحلة الجمل:

وإذا كان هذا حال التاسيلي نزجر خلال فجر التاريخ وبداية العصور التاريخية، فإن القرنين الثالث والرابع ميلاديين، الموافقين للتواجد الروماني ببلاد المغرب، قد طبعا الفن الصخري بمشاهد تصور الجمل، حيث تختفي العربات والأحصنة نهائيا في بداية هذه الفترة. فاتخذت هذه المرحلة الجافة، التي استوجبت حضور هذا الحيوان بقوة اسم طور الجمل[30] (30) (Cameline)، هذا الأخير الذي مثل آخر مرحلة للفن الصخري بالمنطقة.

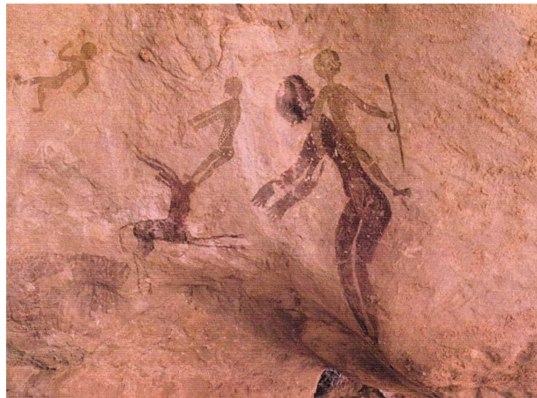
الخاتمة:

الفن الصخري بهذه المراحل الخمس، وباستمرار صاحبه في إبداع لوحاته الفنية عبر فترات متواصلة، عكس التواصل الحضاري للإنسان الذي عاش بالتاسيلي نزجر، ومثل سلفا للإنسان المغاربي، من خلال مشاهد فنية تعكس إرثا حضاريا يتوجب الحفاظ عليه، لأنه رسالة الأجداد إلى الأجيال الحاضرة واللاحقة، تعبيرا عن هويتهم الحضارية والوطنية التي تمتد جذورها في عمق التاريخ.

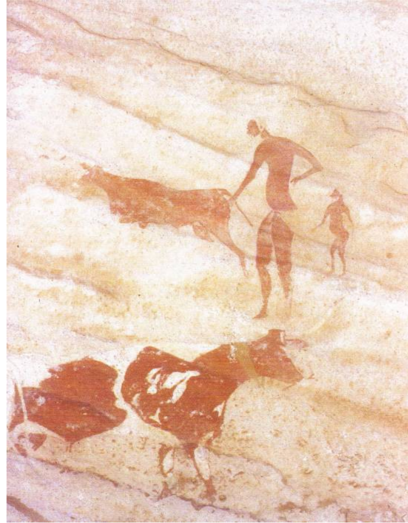
ملحق الصور:



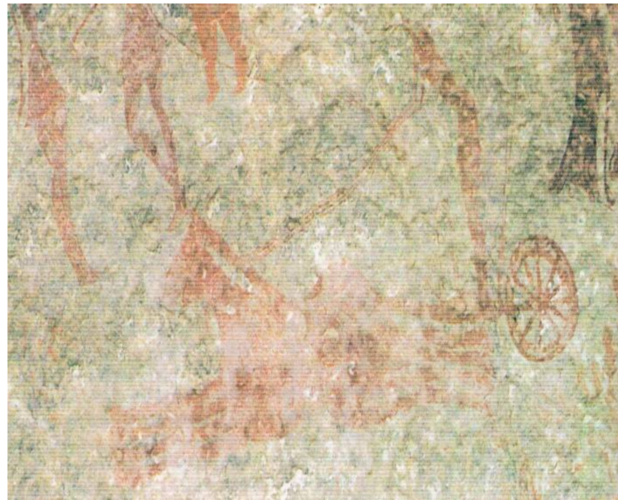
الصورة رقم (1): مرحلة الجاموس (واد جرات، تاسيلي نزجر)



الصورة رقم (2): مرحلة الرؤوس المستديرة (تان زومايتاك، تاسيلي نزجر)



الصورة رقم (3): المرحلة البقرية (صفار، تاسيلي نزجر)



الصورة رقم (4): المرحلة الخيلية (تيهونت تيووساكيت، تاسيلي نزجر)

مجلة منبر التراث الاثري
ISSN: 2335-1500, EISSN: 2602- 7267



الصورة رقم (5): مرحلة الجمل (هضبة ميداك)
(M .Hachid ,2009,pp .1O5-116)

هوامش البحث:

1 . Breuil (A. H), « Les roches peintes du Tassili- n- Ajjer », congrè spanafricain de préhistoire. 1952, Ed. Art et métiers graphiques, Paris, 1955, p.8.

2 . Duveyrier (H), Les Touaregs du nord, T. 1, éd. Libraire Challanel Ainé, (1864), p. 55.

3 . Hachid (H), Le Tassili des Ajjer, éd. E. D. I. F, (Alger 2000), p. 19.

4 . Ibid., p. 25.

5 . Lhote (H), Les Touaregs du Hoggar, deuxième édition, (Paris 1955), p. 32.

6 . Pomel (A), Le Sahara, Ed. association ouvrière victoire Aillaude et Compagnie, (Alger 1872), p. 16.

7 . Lhote (H), OP. Cit, p. 44.

8 . Camps (G), Les civilisations préhistoriques de l Afrique du nord et du Sahara, Ed. DOIN, Paris , 1974, p.222.

9 . Furon (R), Le Sahara, Ed. Payot, Paris, 1958, p. 32.

10 . Anonyme, C. R. A. P. E, «le site préhistorique de Tin-Hanakaten. Tassili- n-Ajjer», Bulletin inférieur, N. 5, 1976, p. 6.

11 . Capot- Rey (R), Le Sahara français, T. 2, Ed. presse universitaire de France, Paris , 1953, p. 75.

12 . Lhote (H), Le Sahara désert mystérieux, Ed. Bourrelier, Paris, 1958, p. 95.

13 . Ibid., pp. 92. 93.

14 . Hachid (M), L'art rupestre du Tassili n Ajjer, Racines, N. 1, Ed. Office du Parc National du Tassili, l Algérie, 2009, p. 107.

15 . Lhote (H), Les touaregs du Hoggar, pp. 65-66.

16 . Basil (D), Les royaumes africains, Ed. Time Inc., (1966), p. 46.

17 . Hachid (M), Op. Cit, p. 106.

18 . Lhote (H), Le peuplement du Sahara néolithique d'après l'interprétation des gravures et des peintures, Journal de la société des africanistes, T. XL, Ed. Au siège de la société Musée de Lhomme, Paris , 1970, p. 96.

19 . Hachid (M), Op. Cit, p. 108.

20 . Mauny (R), Gravures peintures et inscriptions de l'Ouest africain, Ed. 1. F. A. N, Dakar, 1954, p. 9.

21 . Hachid (M), Les premiers Berbères entre Méditerranée. Tassili et Nil, Ed. Ina- Yas, Alger, 2001, p. 77.

22 . Camps (G), Les Berbères mémoire et identité, Ed. Barzekhe, l'Algérie, 2007, p.73.

23 . Muzzolini (A), L'art rupestre du Sahara central, T. 1. 2, Ed, laboratoire de pays du méditerranée occidental, 1983, p. 375.

24 . Hachid (M), Op. Cit, p. 89.

25 . Mauny (R), Op. Cit, p. 14.

26 . Camps (G), Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du nord et du Sahara, p. 246.

27 . Camps (G), Les Berbères mémoire et identité, pp. 74-77.

28 . Lhote (H), Les Touaregs du Hoggar, p. 72.

29 . هيرودوت، التواريخ، الكتاب الرابع، نصوص ليبية، ترجمة علي فهمي خشيم، منشورات دار الفكر، طرابلس، ليبيا، 1967، ص: 88.

30 . Mauny (R), Op. Cit, p. 14.